قصة قصيرة

شر البلية . . .

أحمد عوده

توجه الى الباب تسبقه معدته . ضربات الجوع أقوى من الطرق على الباب وأعنف . لا بد انه ابنه الذي خرج منذ اكثر من ساعتين لشراء الخبز . سيرجىء عقابه الى حين يخرس هذه المعدة الكافرة وبعدها يفرك اذنه حتى يقطر منها الدم . . . فرك يديه ارتياحا وسحب المزلاج . ترنح الباب ، اوشك ان يسقط بين يديه . هم ان يصرخ بابنه « اين الخبز ؟» رأى عنقه في قبضة رجل غارق من رأسه وحتى قدميه ببذلة حالكة السواد. لم يخطىء في معرفة ان من يقبض على ابنه بهذه الصورة ويسد الفراغ شرطي من لحم ودم وان كان جامدا لايطرف له جفن .

ـ تفضل.

خرجت من فمه ورقة صفراء ذابلة ادركها الخريف. ضغط الشرطي على عنق الصبي ضغطة تلوى لها وصاح. قال وهو يلكز الاب بعصا سوداء تحت ابطه :

ـ أهذا الوغد ابوك ؟

يحاول الصبي ان يهز رأسه ايجابا . تمنعه اليد الضاغطة عليه . يحس الاب بالاصابع تعتصر قلبه . يبسط يديه ضارعا :

ـ ماذا فعل يا سيدي ؟

سدد اليه نظرة لملمت ذنوب الارض وألقتها على رأسه . قال مزمجرا :

ـ بل انت الذي فعلت وفعلت وفعلت .

ضم يديه الى صدره بلا ارادة يتقي بهما شرا احس انه لا محالة واقع به . بعثر ذاكرته عله يعثر فيها على رائحة ما ساقت انف هذا الشرطي فلم يجد . ألفى ذاته شخصا مسالما كل عالمه الطريق الفاصل ما بين المدرسة والبيت . اما اللسان الذي يسوق عادة صاحبه الى السجن او المقبرة فقد القى عليه القبض منذ زمن وأثقله بالاصفاد حاكما عليه بالسجن المؤبد بين جدران فمه . منذ امد طويل لم يخض في احاديث السياسة وانتشار الجوع وتفشي الاوبئة وكذلك احتلال الجهل كل شبر في هذه المدينة . لقد سد السبل في وجه اية تهمة توجه اليه » .

يقول بفرح طفولي :

ـ لعلك يا سيدي اخطأت القصد ، فما انا الا رجل مسالم .

القى نظرة معجبة على صدره المطرز بالاوسمة قائلا بزهو وغضب :

ـ نحن لا نخطىء وانت لا تكثر من الكلام .. أليس هذا ابنك ؟

أنشب أظافره في عنق الصبي فأطلق صيحة نفذت في قلبه سكينا مرهفة . ارخى جفنيه بمعنى نعم. قال الشرطي وهو يدفع الصبي الى الداخل :

ـ كان يشتري خبزا يكفي لطابور خامس .

استعاد في ذاكرته نصوص البلاغات اليومية انكان فيها ما يناقض شراء الخبز ، ولما لم يجد قال موضحا بفرح :

ـ نحن اكثر من عشرة والخبز طعامنا الوحيد .

ربت الشرطي على وجهه بغلظة وصاح صيحةالظفر:

ـ ها انت قلتها بفمك .. عشرة وربما اكثر في مكان واحد .

كلام الشرطي يسرق منه الوعي والمنطق . بات لا يعي متى يكون على صواب او خطأ . يحاول ان يتذكر ان كان هذا يتعارض والبلاغات . عينا الشرطي تنحران حتى حقه الطبيعي في التذكر . تصلبانه على شجرة منفردة وسط صحراء لا ماء فيها او هواء . تهرول اليه زوجه والاولاد . يقف الكل بلا حراك . تنقل الزوجة عينيها بين الشرطي وبينه . يشعر انها ايضا تسوق اليه تهما مجهولة تلومه عليها . قال يقتل في عينيها طائر الشك :

ـ انا رجل مشهود لي بحسن السيرة والسلوك. صفحتي عندكم انصع من ثلوج القطب الشمالي .

حرك الشرطي رأسه ضجرا :
ـ شمالي ، جنوبي ، لا يشبعني هذا الكلام .

امسك به من ياقته وجره الى الخارج جرا . استدار الى زوجه وهو ذاهب يطمئنها :
ـ لم افعل شيئا يا خديجة .. لا تقلقي .

لمح على وجهها لوما وتكذيبا . اما عيناها فكانتا تقبضان على تلك النظرة الحائرة تتردد فيهما وهي تذكره بمصير الاولاد ان هو حاول ان يرفع رأسه او يطلق سراح لسانه . كلماتها اليومية ما تزال ترن في اذنيه .
ـ من يحاول الوقوف في وجه قطار سائر يتحول الى سكة حديد .. حذار ؟

« متى يعود ليثبت لها أنه لم يخدعها وانه أكثر حرصا منها على الاولاد حتى يكبروا ويفهموا الحياة ؟. انه بريء وما هي الا دقائق معدودة يعود ليطوي اولاده تحت جناحيه ، يقبلهم ويقسم لهم انه ما حكم على نفسه بالجمود والصمت الا من اجلهم » .

دفعه الشرطي دفعة ايقظته من احلامه . ظل يركض بفعل الدفعة حتى توقف مرغما امام مكتب فخم مغطى بزجاج لماع . ضرب الشرطي بقدميه الارض وصاح :
ـ ها هو المجرم يا سيدي .

انتزع وجهه المتعب عن سطح الزجاج . قابلته عينان كانتا تتربصان به . تراجع الضابط حتى التصق بالجدار . عيناه غيمتان محملتان جليدا في وجه صارم الملامح . يشعر انه بات محاصرا داخل شبكة محكمة النسيج . يلمح مقنعا الى جواره . يحاول ان يتهالك عليه . ينتهره الشرطي بعنف . يدرك ان الامور لن تسير في صالحه البتة . معدته الخاوية تسد تجويف البطن والحلق . تهجم عليه رغبته ان يتقيأ امعاءه ويتبخر في سماء هذه الحجرة شديدة الحرارة . يسمع الشرطي يقول بلهجة تتوغل في أعصابه كالمنشار :
ـ اتعبني يا سيدي حتى اتيت به .

صوب الضابط الى الشرطي نظرة تقريع ذابت استصغارا حين نقلها اليه . قال باستهانة :
ـ هذا الفأر يتعبك ؟

ثم زعق بالشرطي :
ـ اغرب عن وجهي .

تسلل من الباب قطا مبتور الذيل . عاد الضابط يحكم من حوله الخيوط . يقول من زاوية فمه مع بداية ضحكة تبدو بلا نهاية :
ـ اتعبته !.. هه !

بسط يديه ضارعا .
ـ والله ...
ـ اخرس واترك الله جانبا .

يتناول سيجارا من علبة مذهبة . يغرسه بين أسنانه . ألفى الفرصة مواتية كيما يقوم بعمل نافع يمتص به شيئا من غضبة الضابط . نشط بالبحث عن ولاعة او كبريت على المكتب فلم يجد . ندم على تركه التدخين والا لامكنه القيام بما ينفع في موقف حرج كهذا .
ـ ماذا تشتغل ؟
ـ مدرسا ... مدرسا التاريخ والجغرافيا في مدرسة ....

رفع الضابط يده يخرسه .
ـ كفى .. اذن فأنت تحسن القراءة ؟

تحير ان كان الجواب بنعم سيفيده ام لا هي التي تفيد . تخيل ان هناك ابتسامة تنمو تحت جلد هذا الوجه الجامد . اندفع بلا وعي يطري ولعه بالمطالعة . امره ان يصمت .
ـ ثرثار .. هذا يثبت التزامك باصول المهنة .

ادرك بحدسه ان هذا الكلام يحمل معاني غامضة قد تجلب له الضرر . قال بمرح لا يناسب الموقف :
ـ وشرفك في حدود سير العظماء والبحار والانهار والتضاريس ووسائل ...

ضرب الارض بقدميه يسكته . اختل توازن الكرسي من تحته . سقط السيجار من فمه . أمطره سيلا من الشتائم . قال يعتصر الكلمات :
ـ اريد فقط معرفة ان كنت تقرأ بلاغاتنا . فهي فقط ما يستحق القراءة والسماع .

قال باندفاع وحرارة :
ـ أقرأها واسمعها واحفظها عن ظهر قلب .
ـ كذاب .

اخترقت أذنيه رصاصة محكمة التسديد . يتفتت ويذوب . يفقد احساسه الراهن بالاشياء . ما عاد يهمه شيء . فقط لو يعرف التهمة التي ألصقت به .

مط الضابط شفتيه وقال وهو يتناول سيجارا اخر ممعنا اليه النظر .
ـ كم ابنا لديك ؟

سره ان ينتقل الحديث الى نطاق الاسرة ، فهو لا شك سيرحمه حين يعلم بالافواه التي تنتظر عودته لها بالخبز .
ـ ثمانية .. اكبرهم دون العاشرة .
ـ وزوجك وانت .. كم يكون العدد ؟
ـ عشرة .
ـ ها انت تعرف في الحساب كما تعرف التاريخ .

لم يكن في لهجته المسنونة بالسخرية ما يغريه أن يتمادى بالتفاؤل . رآه يستريح في مقعده ناظرا الى الدخان المتصاعد حلقات رعناء .

ـ والعدد المسموح به للتجمع في بلاغاتنا كم شخصا ؟

« سيكون الامر في منتهى الغرابة والاذلال ان تعاقب على انجابك هذا العدد من الاولاد وقد ظننت انسيحكم لك من أجلهم بالبراءة » .

صاح الضابط بصبر نافذ :
ـ كم شخصا قلت لك ؟

همس بصوت مذبوح :
ـ خمسة .

افرغ الضابط ضحكة ظل يختزنها امدا طويلا . اتسعت عيناه ذعرا ورهبة . « كان الامر في غاية البساطة حين اختزلوا عدد المدرسين الى ما دون الخمسة، اما الاولاد فكيف لاب ان يحذفهم من ابوته لهم ؟ » . يبقى لديه أملَ بحجم الصرصار ان الامور لن تصل الى هذا الحد وان التهمة ركبته لشيء جد بعيد عن الاسرة والاولاد . قال بحرارة :
ـ اقسم بالله العظيم انني .....

رفع الضابط يده محذرا :
ـ اوصيتك ان تترك الله جانبا .

بسط يديه وقال عازفا على وتر الدموع :
ـ انت يا سيدي تحرمني من الشاهد الوحيد هنا على براءتي .

رماه بنظرة استصغار وقال من بين اسنانه :
ـ العدل هو الشاهد . انتم عشرة اشخاص في مكان واحد . خمسة كما ترى زيادة عن العدد المسموح به للتجمع .

اختلط عليه فما عاد يعرف ان كان عليه ان يضحك ام يبكي . يفقد ثانية احساسه الراهن بالاشياء . يتحول الى منطاد ثقب في الجو . يهوي من علو شاهق . الخوف ينتصب على رأسه مظلة تدفع عنه رياح الطمأنينةوالثبات. تلتقي عيناه بعيني الضابط . يرى في كل منهما صنارة وهو معلق فيها كطعم . يتزاحم الكلام على لسانه . «ماذا عساك تقول ؟ » يتوصل الى قناعة ان الصمت ابلغ في هذه المواقف من الكلام . « أما الضحك فطلقة الرحمة للمصابين مثلك بالرزايا والشرور » . يشرع بالضحك الهستيري . يزمجر الضابط ويركبه السعار . يضغط على زر امامه . يصلصل جرس في الخارج . يندفع الشرطي الى داخل الحجرة . يضرب بقدميه الارض . يشير الضابط باصبعه كأنما يطرد ذبابة . تقبض على ذراعه يد من فولاذ . تجره خارجا . يعبر ممرا يتناقص نوره كلما اوغل فيه . يفقد الرؤية تماما . تتولى اذناه التقاط دبيب ارجل في الظلمة . يسمع صرير مفتاح وقفل وجأرة باب يفتح . تدفعه يد من الخلف . يسقط فوق كتل من لحم وعظم . تتلقاه ضحكات ابعد ما تكون عن السرور . تتعود عيناه الظلمة بالتدريج . يرى من حوله رهطا من الرجال . ينقل يده عليهم . يعدهم . ألفاهم تسعة داخل زنزانة في حجم بيضة الافعى . يبحث بعينيه عن الشرطي ليخبره ان العدد اكثر بكثير مما تسمح به البلاغات . تصطدم عيناه بالباب المغلق . ينسى كل شيء عنا انه وسط افواه تطلق ضحكات ابعد ما تكون عن السرور . يشارك الرجال الضحك فيما شرع يحل اصفاد لسانه عقدة عقدة .

عمان (الاردن)

صدر حديثا :

زوربا

الرواية الشهيرة لـ :

نيكوس كازانتزاكي

بعد غيابها طويلا عن السوق

ترجمة جورج طرابيشي

•

الشك

الرواية الشهيرة لـ :

كولن ولسن

التي كانت تنقص مجموعته
الروائية الكاملة

صدرتا حديثا
في طبعة جديدة
عن دار الآداب